

مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، نصف سنوية محكمة،

العدد الثاني والعشرون، خريف وشتاء ١٣٩٤هـ.ش/٢٠١٦م

صص ١٣٧ - ١٦٤

دراسة أشكال توظيف أسطورة بروميثيوس في الشعر العربي المعاصر

الدكتور علي نجفي إيوكي* والدكتور سيد رضا ميرآحمدي** وبهاره صمدي***

الملخص

الحق أنّ الأسطورة تلعب دوراً بناءً في الشعر العربي المعاصر، حيث أكثر الشعراء من توظيف مختلف الأساطير لإثراء نصوصهم الشعرية بما ودمج الذاتي بالموضوعي وإبعاد القصيدة عن غنائيتها وإكسابها عمقاً وفتحها على دلالات ثرية. وأسطورة «بروميثيوس» الإغريقية - بما تحمل من دلالات مختلفة وشحنات تعبيرية واسعة - قد لفتت أنظار الشعراء العرب المعاصرين على نطاق واسع؛ فأكثرنا من استدعائها وتوظيفها لتخصيب قصائدهم، وألقوا الضوء على جوانب مختلفة من الأسطورة للتعبير عما يختلج في حنايا صدورهم وما يعانون من الواقع المعيش. وعلى ضوء أهمية المسألة يقوم هذا البحث بمنهجه الوصفي - التحليلي بدراسة أشكال توظيف هذه الأسطورة وكيفية توظيفها في شعر خمسة من الشعراء العرب وهم أبو القاسم الشابي وعبد الوهاب البياتي وبدر شاكر السياب وبلند الحيدري وجبرا إبراهيم جبرا؛ نظراً إلى كثافة حضور أسطورة بروميثيوس ورمزية توظيفه في شعر هؤلاء، مركزاً على النقد والتحليل لنصوصهم الشعرية الأسطورية. وأخيراً تقدم نتائج البحث بشكل مقارنة؛ لأنّ هؤلاء من أهم الشعراء الذين استلهموا هذه الشخصية الأسطورية في بنية قصائدهم وحاولوا بها الربط بين الماضي والحاضر والتوحيد بين التجربة الذاتية والتجربة الجماعية؛ فأثري عملهم الفني، ولكنه بالأشكال المتعددة الجديرة بالدراسة والتحقيق.

ومن أهم ما وصل إليها البحث الحالي من النتائج هو أنّ هؤلاء على اختلاف اتجاهاتهم الشعرية مالوا إلى تكييف أسطورة بروميثيوس أمام الواقع السياسي والاجتماعي المؤسف في الوطن العربي ليؤكّدوا من خلالها على الاضمحلال الحضاري الذي أصاب الوطن العربي. ثمّ أنّ موقفهم تجاه هذه الأسطورة يتأرجح بين اليأس والأمل، وبين التوافق والتخالف في آن.

الكلمات المفتاحية: الأسطورة، بروميثيوس، النار، المعاناة، التمرد، المقاومة.

* أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة كاشان. (الكتاب المسؤول). najafi.ivaki@yahoo.com

** أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة سمنان. rmirahmadi@semnan.ac.ir

*** - طالبة الدكتوراه في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة كاشان.

المقدمة

لعلّ من الظواهر الفنية المميّزة للقصيدة المعاصرة هي اعتمادها على استدعاء الأسطورة وتوظيفها في النصوص، بل لقد أصبحت الأساطير تلعب دوراً بناءً في النصّ الشعري المعاصر. ومن المعروف أن الأساطير تسرّبت إلى الأدب العربي المعاصر إثر احتكاك العرب بالثقافة الغربية وتعرفهم إلى الأدب الأوروبي خاصةً تأثر الشعراء العرب بقصيدة «الأرض اليباب» أو «الأرض الخراب» لإليوت (١٨٨٨-١٩٦٥) - الشاعر والناقد الإنكليزي - وترجمة جبرا إبراهيم جبرا عام ١٩٥٩ من كتاب «العصن الذهبي» لفريزر، ثمّ ظهور كتاب شكري عياد «البطل في الأدب والأساطير»، حيث ساعد جمعهم على تطوّر استخدام المنهج الأسطوري في الشعر العربي المعاصر. هذا وإنّ ما حدث في أواسط الخمسينيّات للعالم العربي من مشاكل ومصائب دفع الشعراء العرب إلى استلهام الأسطورة؛ فعمدوا إليها ليعبروا عن قحط الحياة العربية بعد نكبة ١٩٤٨م وعن شوقهم العميق إلى الوصول إلى كرامتهم المهذورة وإعادة مجدهم الضائع.

ولانمضي حتى نرى أكثر الشعراء من استدعاء الأساطير وإثراء قصائدهم بها؛ لتصبح الأسطورة مصدراً خصباً للشاعر العربي، يعبر بها عما يدور في خلجات صدره وما يعانیه من الأوضاع الاجتماعية والسياسية السائدة على الوطن العربي من نير الأجنبي والمستعمرين والانكسارات التي شهدتها الأمة العربية. وما أنه لا يمكن للشاعر أن يبوح عن هذا الأفكار والأحاسيس بلغة صريحة، فيتحدث من وراء القناع واستخدام الأسطورة والرمز ويلجأ إلى «المعادل الموضوعي» من خلال استدعاء هذه الشخصيات كي يتعد عن التعبير المباشر ويشجع أبناء الوطن على الحرية والثورة والقيام ضدّ الحكام الظالمين والأجانب ومحاوّل أن يربط بين الجو الأسطوري وأحداث حياته المعاصرة، متحدثاً عن نفسه وعن وطنه من خلال نموذج أسطوري.

إذاً تحولت الأسطورة في الشعر العربي الجديد من مجرد قضية «ميثولوجية» إلى أن تكون جمعاً بين طوائف من الرموز المتجاوبة، يجسم فيها الإنسان وجهة نظر شاملة في الحقيقة الواقعة. وهكذا استطاعت القصيدة العربية المعاصرة من خلال الاعتماد على منهج الأسطورة وبنائها أن تحقق وحدة بناء درامي بعد أن حققت تغييراً في مفهوم الصورة الشعرية وعناصرها الجمالية^١. ومن هذا المنطلق أتجه الشاعر المعاصر إلى استخدام الأساطير للبوّح عن قضايا الواقع المعيش فضلاً على أن استلهامها يثري العمل الفني، فاستمدّ من ينابيع التراث الشعبي واستخدم شخصية السندباد والعنتره وزرقاء

اليمامة وغيرها من الشخصيات التراثية العربية في نصوصه الشعرية، وأيضاً مال إلى توظيف الأساطير اليونانية في تعبيره عما يعاني منه من الوقائع العصرية أمثال أسطورة سيزيف، عوليس، اوديب، بروميثيوس وغيرها من الأساطير.

وبما أن أسطورة بروميثيوس الإغريقية تلعب دوراً بناءً في تعبير الشعراء العرب المعاصرين عن الوقائع العصرية، ولها إحاءات خاصة وشحنات تعبيرية واسعة في أشعارهم، -حيث لفتت أنظارهم إلى حدٍ كثير، وتناولوها في بنية قصائدهم؛ إذ نراهم لا يدخرون جهداً إلا ويبدلون هذا لاستغلال هذه الشخصية الأسطورية في شعرهم للتعبير عن مواقفهم الخاصة- فدراسة هذا الموضوع ذات أهمية خاصة ويجب على القارئ أن يتخذ هذه المسألة بعين الاعتبار، وإلا تبقى مفاهيم أشعارهم بين ملامح الإبهام وظلاله، ولعلّ مثل هذه الدراسة يساعد المتلقي على فهم مناسب للشعر العربي المعاصر. إذ ما أسلف ذكره يفسر ضرورة هذا البحث وأهميته.

وعلى ضوء أهمية المسألة تأتي هذه الدراسة. بمنهجها الوصفي - التحليلي لتبيين شخصية أسطورة بروميثيوس وفعاليتها في أشعار أبي القاسم الشابي وعبد الوهاب البياتي وبدر شاكر السياب وبلند الحيدري وحريرا إبراهيم حبراً؛ الذين اهتموا في قصائدهم بهذه الشخصية لإثراء عملهم الفني وللتعبير عن القضايا المعاصرة رمزياً. ومن أهم الأسئلة التي نحاول الإجابة عليها هي: ما هو الغرض عن استدعاء هذه الأسطورة في الشعر العربي المعاصر؟ ما هي فاعلية هذه الأسطورة في شعر هؤلاء الشعراء؟ هل يميل الشاعر إلى انزياح الجو القصصي للأسطورة أو يستخدمها دون تغيير وتحوير؟ ما هو الفرق بين استخدام كل من هؤلاء الشعراء لأسطورة بروميثيوس؟

وفيما يتعلق بسابقة البحث يمكن القول ولو كانت الأسطورة قد حظيت بمكانة رفيعة في الأدب العربي، وكتبت دراسات عديدة في العالم العربي وفي بلدنا عن الأساطير العالمية وخاصة حول الأساطير الإغريقية وميزاتها وعلاقتها بالحياة الاجتماعية والسياسية، أهمها «أسطورة الموت والانبعاث في الشعر العربي الحديث» لريتا عوض (١٩٧٤م)، «الأساطير» لأحمد كمال (١٩٧٥م)، «الرمز الأسطوري في شعر بدر شاكر السياب» لعلي عبد المعطي البطل (١٩٨٢م)، «الأسطورة في شعر السياب» لعبدالرضا علي (١٩٨٤م)، «الأسطورة في الشعر المعاصر» لأسعد رزوق (١٩٩٠م)، «الأسطورة في الشعر العربي المعاصر» ليوسف حلاوي (١٩٩٤م)، «الأسطورة في الشعر العربي الحديث» لأنس داود (د.ت)،

«أديب الاسطورة عند العرب» لفاروق خورشيد(٢٠٠٤م)، «الأسطورة في شعر أدونيس» لرجاء أبو علي(٢٠٠٩م). غير أنّ النظرة اليسيرة إلى هذه الدراسات خليقة أن تقنعنا بأنّ الذين درسوا موضوع الأسطورة في الشعر العربي المعاصر، لم يفرّدوا دراسة شافية وكافية لجانب أسطورة بروميثيوس وفعاليتها في الشعر، بينما هذا الموضوع على أعظم جانب من الخطورة ويلعب دوراً محورياً في الشعر. هذا وإنّ المقالة الوحيدة التي كتبت عن هذه الأسطورة المعنونة بـ«بررسی تطبیقی بازآفرینی اسطوره پرومته در شعر معاصر عربی و فارسی (با تاکید بر شاعران برجسته)» المطبوعة في مجلة «كاوش نامه ادبيات تطبیقی» من تورج زيني وند، على أكبر أحمدي وآرش كرمي؛ فقد عالج الباحثون فيها توظيف هذه الأسطورة في شعر كبار الشعراء الإيرانيين والعرب المعاصرين كـ «أحمد شاملو، نادر نادرپور، سیاوش کسرایی، عبدالوهاب البياتي، بدرالشاكر السيّاب وأبي القاسم الشابي»، غير أنّهم نظروا إلى هذه الأسطورة نظرة عابرة دون أن يركّزوا على أشكال توظيفها والتقنيّات الأدبيّة المتوافرة في النصّ الأسطوري ودون أن يقوموا بنقد وتحليل مقارن؛ حيث لايزيد كلامهم عن ثلاثة الشعراء إلا على بعض السطور تاركين الشعراء بلند الحيدري وجيرا ابراهيم جيرا. لذلك إنّ النظرة اليسيرة إلى جميع الدراسات الأسطوريّة خليقة بأنّ تقنعنا بأنّ الذين درسوا أشكال حضور الأساطير الموظّفة في الشعر العربي المعاصر لم يفرّدوا دراسة شافية كافية لأسطورة بروميثيوس ونظروا إليها بشكل جزئيّ وعابر جنب الموضوعات الأخرى.

بروميثيوس في وجهه الأسطوري

ما تتفق عليه كلّ التقارير الأسطوريّة هو أنّ بروميثيوس واهب الفكر العميق والحكمة، أحد الجبابرة أو التيتان^١ في الميثولوجيا الإغريقية، من مؤسسي مجمع الآلهة الجدد والعقل المدير لهذا النظام، والثوري المدافع للإنسان إزاء خصومة الآلهة. كان اسمه يعني «بعيد النظر» و«الفكر المتقدّم»، وقد كان يملك المقدرة على التنبؤ بالمستقبل، وإنه كان معلّم البشرية لاستعمال النار. وقصته واحدة من أهم القصص في الميثولوجيا الإغريقية، وهذه القصة ترمز لمضامين ودلالات هائلة في الفكر والتاريخ الغربي؛ تتخلص قصة بروميثيوس الحير في أنه هذا اختار الانحياز للجنس البشري، وأن يكون منقذه ومعلمه وحامي وجوده؛ لأنه هام حباً للبشر. لذلك قام بفعل تمرد على كبير الآلهة «زيوس» من أجل الإنسان، وسرق النار التي تعني «النور» و«المعرفة» و«الديء» وقدمها للبشر كإحدى وسائل الحضارة والتمدن الفعّالة؛ منحها للبشر من أجل رفعه من الظلمة إلى النور، ولكي يوظّف النار في خدمة مصالحه (الأكل،

١. هم أبناء غايا وأورانوس الإثنا عشر، وعرق من الآلهة الأقوياء وهم العرق السابق للآلهة الأولمبية.

الإنارة) وعلمه كثيراً من الصناعات كالحداثة وعلمه الفنون والحرف فنقله من البدائية ووضعه على طريق المدنية، وحوّل الإنسان من بهيمته إلى آدميته، من بدويته الفطرية إلى خالق مجتمع. إذاً قد خالف بذلك الإله «زيوس» الذي أراد للأرض أن تعيش في الظلام، فاختطف بروميثيوس النارَ والإلقاء بها للأرض وتقدمها للجنس البشري جعل زيوس غاضباً عليه غضباً شديداً على ما ارتكب من خطأ في رأيه وعاقبه بأشد قسوة؛ فقيده بالسلاسل إلى صخرة كبيرة في جبال القوقاز، وسلط عليه نسراً جارحاً يتردد عليه كل صباح وينهش كبده ويلتهمه، ثم ينمو الكبد في الليل من حديد دون أن يحظي بروميثيوس بنعمة الموت، وهكذا يعذبه عذاباً أبدياً إلى ما لا نهاية، حتى يقدم المخلص هرقل (هيراكليس) ٢، ويحرّر بروميثيوس من لعنة زيوس وينقذه من ريقته. ومن قساوة زيوس وظلمه على البشر أنه خلق بندورا (حواء الإغريق) ذات الشرور والمفاسد وحاملة كل أسباب الضعف في الجنس البشري وزوجها من ابيميثيوس شقيق بروميثيوس، فتحت بندورا جرتها التي تحتوي الرذائل والأضغان القادرة على إهلاك البشر مثل الشيخوخة والكدح والمرض والخوف والرذيلة والوجد والعاطفة والحب انبثقت كلها من الجرة على شكل غيمة تغلغلت في جسد بندورا وزوجها وهاجمت أجساد البشر كلهم.

والقصة التي تدور حول بروميثيوس انتهت إلى ثلاث قراءات من جانب الذين عالجوها: الأولى أن بروميثيوس رمز دائم لروح التمرد والعصيان، وهو بالتالي رمز للحياة المدنية النزاعة نحو تطور البشر من خلال الحضارة والمعرفة. الثانية وهي تعود إلى «هسيود» أول الكتاب الإغريقيين الذين نقلوا إلينا الأسطورة، حيث يرى أن بروميثيوس متهم بجلب الأذى والشر للإنسان ومسؤول عن إتهامه، فالبشرية ليست بحاجة إلى بروميثيوس الذي عصى أوامر الأرباب؛ لأنه قاد البشرية نحو الدمار والخراب. والقراءة الثالثة لإسخيلوس صاحب مسرحية «بروميثيوس مقيداً» حيث قدمه بصورة الجبار العنيد المتمرد حتى نهاية المطاف والذي لا يعبأ بالعذاب والمعاناة ٣.

١. حسن المسلمي، دراسة في مسرحية بروميثيوس في الأغلال لأيسخيلوس أو مشكلة العدالة. حوليات كلية الآداب جامعة عين الشمس، ص ٣١٣.

٢- وهو من البشر الجبارين.

٣- أنظر: كندي، دانشنامه اساطير يونان و روم، ١٦٠ - ١٦١؛ گرانت و هيزل، جان. فرهنك اساطير كلاسيك، ٢٠٩ - ٢١١؛ گرمال، فرهنك اساطير يونان و روم، ٧٧٩ - ٧٨٢؛ سميت، فرهنك اساطير يونان و روم، ١٤١ - ١٤٣.

ومن المستنبط أنّ شخصية بروميثيوس المحوريّة هي رمز الإنسان الثائر المتمرد، الباحث عن التقدم والحرية ورمز الفكر الإنساني الذي يرفض العبودية وأن يبقى عبداً خنوعاً للنزوات الطاغية بل يتطلّع إلى الحرية بالثورة والقوة ليحصل على سلاح المعرفة ويجعله في خدمة البشر^١. يعتبر بروميثيوس واهب الفكر العميق والحكمة، إنه رمز لإنسان متمرد طاغ لا يعرف لنفسه هدأً، يتجاوز عن الحدود بشخصيته المتمردة، شخصية تحكي الإعصار. إذاً لعنة بروميثيوس تنشأ من عصيانه ومن قوله «لا» للآلهة ورفضه لأنانيتهم. وقد اختار بروميثيوس أن يرتكب الخطأ وهو يعرف نتيجة ما فعل، وتقبل العقوبة سلفاً كي يخلص البشر من الذل.

بروميثيوس في الشعر العربي المعاصر

كما أسلف ذكره أنّ بروميثيوس في وجهه الأسطوري متّصف بشخصية متمردة عاصية، وهو ينجح على الظلم والاضطهاد ويريد أن يقضي على الجور والاستبداد والقمع؛ فغاياته تغيير المجتمع والنظام السياسي وإقامة العدل والقسط والسلم، وللوصول إلى هذا المراد يطغي على حكومة الآلهة وعلى سيطرتهم. هذا وإنّ الشعراء العرب المعاصرين لجأوا إلى استخدام هذه الشخصية للتعبير عن مواقفهم الخاصة، وكلّ شاعر ركّز على جانب خاصّ من هذه الأسطورة وفقاً لتجربته وعقليته الخاصة. لذلك نتابع البحث بدراسة الأسطورة في شعر الشعراء الذين أسلفنا ذكرهم مع التركيز على النماذج الشعرية التي استحضرت فيها الأسطورة.

١. بروميثيوس في شعر أبي القاسم الشابي

أبو القاسم الشابي (١٩٠٩ - ١٩٣٤م) شاعر رومانطيقي الزعّة و«شعره صورة من نفسه ومن حياته، وشعر غنائي وجداني في الجملة، يكشف عن طابع شعوري منطوي، طابع يميل إلى العزلة وإلى التأمل واستبطان النفس والابتعاد عن الناس والاندماج مع أحياء الطبيعة والعيش مع الجمال والحبّ والفرنّ عيشة روحية زاهدة متصوفة سعيدة»^٢. «شعره مزيج من الحزن والفرح ويعتمد على الخيال الحالم والتغلغل العاطفي والحسّ المرهف الرقيق الذي يخرج المعاني من أعماق الأعماق»^٣. إنّه أول شاعر عربي صرّح باسم أسطورة بروميثيوس في قصيدته المعنونة بـ«نشيد الجبار» أو «هكذا غنّي بروميثيوس»، وهذا التصريح بلاشك يقلّل من رمزيّة النص؛ فنراه قائلاً:

١- فوزي، عبد الوهاب البياتي حياته وشعره، ص ١٥٢.

٢- السحرتي، أبو القاسم الشابي الرجل والشاعر، ص ٥٩.

٣- الصيفي، التجديد الشعري في قصيدة الجبار لأبي قاسم الشابي: قراءة بلاغية ونقدية. العتيق، ص ٢١.

سأعيشُ رغم الداء والأعداء
أرنو إلى الشمسِ المضيئة هازئاً
لا أرمقُ الظلَّ الكئيبَ، ولا أرى
وأسيرُ في دُنيا المشاعرِ، حاملاً،
أصغي لموسيقى الحياة، ووحيتها
وأصيحُ للصوتِ الإلهي، الذي
كالتسر فوق القمّة الشمّاء
بالسحب، والأمطار، والأنواء
ما في قرار الهوّة السوداء
غرداً وتلك سعادة الشعراء
وأذيبُ روح الكونِ في أحشائي
يُحيي بقلبي ميّت الأصداء

الفقرة الشعرية السابقة تؤكد على أن الشاعر مليء بالأمل والرجاء؛ إذ إن كل العناصر المستخدمة في هذه القصيدة من استهلال القصيدة بفعل المضارع المستقبل «سأعيش» الدال على الحياة والحركة والاستمرار، وتشبيه نفسه بـ«النسر فوق القمّة السماء»، ومظاهر الطبيعة الغناء، ووفور الأفعال المضارعة (والتي تدل على استمرارية الأشياء، والتجدد والرجاء)، والتصاوير الحركية والصوتية والبصرية والمفردات الموحية العديدة، تدل على الحيوية والرجاء ونظرة الشاعر التفاؤلية إلى الكون وإلى نهاية الأمر. إنه يكره الخمود والذلّ تمام الإكراه ويحاول أن يعانق الحياة ويتمرد على الضعف كما تمرد بروميثيوس في وجهه الأسطوري. ثم إنه لا يكون في مستطاع الشاعر أن يكون بمنأى عما يشهده من ضعف الجنس البشري و تكاسله وبأسه أمام ما يجري في الحياة؛ لذلك الخطاب موجه قبل كل شيء إلى جميع الإنسان.

والملاحظة الأخرى هي أن الشاعر يترأى لنا كشاعر حماسي لا يخاف من النضال؛ إنه يتحدّى الضعف ويستحلي المعاناة للوصول إلى أهدافه المنشودة، كيف لا و«القصيدة نتاج الشاعر في مراحلها التفاؤلية، برزت من داخل انفعالاته الحسية تمثل بوضوح نزعة الإنسانية الطاغية على فكره، تلك التي جعلته يسمو إلى سامق من السموّ الروحي المحرّد من الماديات المبتذلة. إنها التفاؤلية المحفوفة بهالة من الحماسية المتعطّشة للخلاص من دنيا الآلام والآثام، من دنيا الأعداء والمترصّين، يبشّر بأن مساعي الشرّ ممدود بالزمان والمكان والخير باق لأنه متحوّل من تلك الحياة الفانية إلى عالم الجمال السرمدى»^٢. «وهو يدعو إلى مواجهة القدر بكل ثبات وصمود وسوف يقف أمامه شامخاً ويرى أنه

١- الشابي، ديوان أبي القاسم الشابي، ص ٤٤٠.

٢- المصدر نفسه، ص ٢١ - ٢٢

— وإن هزم في هذا الصراع — سعيد نفسه منتصراً، وأنه سينتهي إلى الحياة التي يريدها حقيقة. لذا فهو قد أعاد التفكير في طريق تعامله مع الحياة والقدر^١:

وأقول للقدَرِ الذي لا يَنْشِئني
«لا يطفئ الهبَّ المؤجَّجَ فيدمي
فاهدم فؤادي ما استطعت، فإنه
لا يعرف الشكوى الدَّليلة والبكا،
ويعيش جباراً، يحدِّق دائماً
واملاً طريقي بالخوف، والدجى،
وانشر عليه الرعب، وانثر فوقه
عن حرب آمالي بكلِّ بلاء:
موج الأسي، وعواصف الأرزاء
سيكون مثل الصخرة الصماء
وضراعة الأطفال الضعفاء
بالفجر...، بالفجر الجميل، الناتي
وزوابع الأشواك، والحصباء
رُجم الردى، وصواعق البأساء»^٢

إنَّ ما يمكن أن نستشفه من المقطع السابق هو أنَّ الشاعر يطلب من القدر أن يقدر له أنواع الكد والتعب والألم ويملاً طريقه بالرعب والخوف والأشواك وينثر فوقه صواعق البأساء ورجم الردى ما استطاع؛ لأنه لن يخضع بل يصمد كصخرة صماء، لاتعرف الشكوى والبكاء بل يتطلَّع إلى الفجر الجميل عازفاً قيثارته، مترنماً بالغناء ونور الحياة، والرجاء يتوهَّج في قلبه وأحشائه. فالتحدِّي الذي يركِّز عليه الشاعر خير دليل على أنَّه تممَّص روح بروميثيوس ورجب في تحطيم القيود التي تكبل الإنسان؛ فيروميثيوس التونسي يصب عليه أن يعيش الإنسان بلا أمل وغاية. فقد اختار الشابي هذه الأسطورة لأنها ترمز إلى الصمود والتحدِّي والثورة بالرغم من الألم الذي ينوبه. فقد ساعدت هذه الأسطورة الشاعر في إبراز ما كان يعانيه من آلام المرض العضال وترصد الأعداء له مما جعل شكواه حقيقة نتاج واقع يعايشه فانطلق مدفوعاً في مناجاته بلغة رمزية صوفية أو حسية شعورية في غاية الرقة والشفافية يبعث الحياة في الجماد، ويحرِّك المعنويات، ويطرح فكره على أساس من المبادئ الإنسانية الخالدة يجلي النفس المتعبة من علائق الحياة لتصفو وترق^٣. «فاستناد القصيدة إلى بروميثيوس

١- طنوس، ابوالقاسم الشابي: ملامح الموت والحياة في شخصية الشابي وشعره، ص ١٣٣.

٢- الشابي، ديوان أبي القاسم الشابي، ص ٤٤٠.

٣- الصيفي، التجديد الشعري في قصيدة الجبار لأبي قاسم الشابي: قراءة بلاغية ونقدية. العتيق، ص ٢٢.

واحتفاظها بجوهر شخصيته، هو الذي أضفى قبولاً على تصوير الشابي لنفسه من خلال تلك المكونات الأسطورية المطلقة»^١.

على أية حال فالشابي في قصيدة نشيد الجبار يعلن وضوح الدلالة والتعلق بأطروحة بروميتيوس الفكرية، حيث يصّر على معانقة الحياة وتمريده على أسباب الضعف الإنساني، كما يعلن تعلقه بالشمس من أجل آفاق جديدة وتمجيداً لحلم الشعراء. فالشاعر واع لمعنى المعاناة الإنسانية بالمعنى البروميتي؛ لذا يحاول الخلاص عبر البحث عن عناصر القوة الكامنة في الذات الإنسانية أو من خلال الاستتار بمذّي البصيرة الداخلية في عمق القلب الإنساني^٢. على ضوء هذا يمكننا الاستنتاج بأن بروميتيوس الشابي يرمز إلى الصمود والتحدي، والمثابرة، بل يتطلع إلى الحياة والرجاء والسعادة بالرغم من لعنة المرض. إنه يمجّد ذلك العذاب والمعاناة ويهتف لغاياته النبيلة. فبروميتيوس التونسي لا ينظر إلى اللعنة والعذاب نظرة سوداوية، بل يراها جسراً للوصول إلى السعادة، ويطمح من ورائها إلى المستقبل. والملاحظة الأخرى هي أن الشابي ما أعطى هذه الأسطورة طابعاً رمزياً ولم يتم بتحويل الجو القصصي للأسطورة بل ركّز على «التمرد البروميتي» آملاً للوصول إلى مبتغاه.

٢. بروميتيوس في شعر عبدالوهاب البياتي

لعلنا لا نجد عن جادة الصواب لو قلنا إن عبدالوهاب البياتي هو الممثل الأول للفكر البروميتي في الأدب العربي بمعنى أدق؛ لأنه في كثير من قصائده استقى من هذه الأسطورة واستلهمها من غير مرة، فقد استحوذت عليه هذه الأسطورة إلى أبعد الحدود، وهو بدوره حاول الإفادة منها على المستوى الفكري والمستوى الأدبي. لقد توسّع الشاعر في استخدام بروميتيوس حتى غدت هذه الأسطورة محورية في دواوينه الشعرية وقريبة من كل المجالات الأسطورية الأخرى.

وبما أنه يسعى دائماً إلى إقامة «دولة يوطوبية» عالمية أو «المدينة الفاضلة» أو «نيسابور الجديدة»، ويدّعي الانتماء الماركسي الاشتراكي، «ويُعتبر أكثر الشعراء العرب تمثيلاً للواقعية الجديدة في العراق وفي الوطن العربي»^٣، حيث يهتم بقضايا الجماهير والشعب والكفاح من أجل إقامة العدل وملكوته الحرية على الأرض، فيبحث دائماً عما يعنيه في تصوير الواقع الموضوعي للمجتمع العراقي والأمة العربية، ويركّز على النواحي الاجتماعية والسياسية للواقع الموضوعي كما هو وكما يجب أن يكون،

١- داود، أنس. الأسطورة في الشعر العربي الحديث، ص ٢٢٦.

٢- الجزائري، تخصيص النص، ص ١٧٢.

٣- رزق، شعر عبدالوهاب البياتي في دراسة أسلوبية، ص ١٠٦.

داعياً إلى بذل الجهود الجماعية للفلاحين والعمّال والفقراء لقيادة الصراع ضدّ قوى الظلم والاضطهاد، ويستخدم تجسيداً لآرائه، وتعبيراً عن تطلّعاته رموزاً ثوريّة يتّحد معها، ويتّخذها دعماً روحياً له في الوصول لما يطمح إليه، وأسطورة بروميثيوس بما تحمل من دلالات عصرية مختلفة، قد أعانتها للحصول على هذه الغاية المنشودة. ويجدر الإشارة هنا إلى أن البياتي استخدم بروميثيوس في قصائد عديدة واستقى من التراث البروميثي في أكثر دواوينه، ولكن المجال هنا لا يستوعب دراسة كل هذه ولذلك نتناول أهم النماذج التي استحضر فيها هذه الأسطورة.

وجد البياتي منذ وقت مبكّر في أسطورة بروميثيوس زاداً فكرياً ثرياً، حيث سمى إحدى دواوينه «سيرة ذاتية لسارق النار»، وإحدى قصائده من ديوان «أباريق مهمشة»، «سارق النار»، ووظّف هذه الشخصية في عدة من قصائده. وعلى سبيل المثال في المقطع الثالث والسابع من قصيدة «قصائد حب على بوابات العالم السابع» ١٩٧٠م من ديوان «عيون الكلاب الميتة»، ارتدى قناع بروميثيوس متحدثاً عن لسانه:

«هاجمني اللصوص في باريس/ وانتزعوا دفاتري وخضبوا بالدم/ مكعبات النور والأسفلت/ وتركوني ميت/ لكني فهمت يا حبيبي، قبل طلوع الفجر/ أحمل زنبق الحقول وعذاب الحرف/ ونار هذا العصر/ للوطن المفتوح مثل القبر/.... أحمل كل ليلة من جبل (القفقاس) هذي النار/ أصرخ بالبوقات/ ومدعي الثورات/ في الوطن الغارق في البؤس من المحيط للخليج/ والنوم والصلاة أسعد حالاً هذه الدواب/ وهذه الطبيعة الصامتة الخرساء/ من فقراء المدن المرضى/ ومن حتالة الأموات في الأرياف/ لكنني أصلب عند مطلع الفجر على الأسوار»^١.

والبياتي قد اتّحد مع شخصية البطل الأسطوري بروميثيوس عبر التقمص الشعري، حيث تلتقي هاتان الشخصيتان في كونهما تحلمان شعلة الضياء التي تنير للبشرية درهماً وتهدئها الطريق القويم. فالبياتي كفعل بروميثيوس سرق النار (أو الشعر) ليعيد للإنسانية نبض الحياة وقيمة الكلمة في زمن ضاعت فيه المبادئ والمثل والقيم، وفقدت فيه الكلمة قداستها وحرّيتها^٢. ثمّ تتضح من هذه الفقرة الشعرية نزعة البياتي الشيوعيّة الاشتراكيّة، إنّه يمزج بين تجربة ثورية وتجربة متافيزيقية ويسترفد شخصية بروميثيوس للبوح عن موقفه إزاء قضايا الوطن المفتوح والمستضعفين الكادحين، وطبقة البروليتاريا الذين يعانون

١- البياتي، ديوان عبد الوهاب البياتي، ج ٢، ص ١٢٧ و ١٢٩ - ١٣٠.

٢- الحلي، التناسّ مع التراث الشعبي في شعر البياتي، ٥٩ - ٦٠.

صراعات الطبقة والاستبداد والاحتلال، و ينتظرون الخلاص والمنقذ، فيتحد مع شخصية هذا البطل الأسطوري الثوري المتمرد، ليهب النار للإنسان المعاصر.

هذا وإن كلمة «النار» المستفاد في النص ذات دلالات موحية ولربما يريد بها الشاعر «روح الحيوية» و«الحياة الكريمة» و«الحرية المفقودة»، والحق أن استخدامه لهذه الأسطورة أحسن اختيار للتعبير عن موقفه هذا. والملاحظة الأخرى أن في قوله «قبل طلوع الفجر» دلالة هامشية على «ضيق الوقت»، و لذلك على بروميتيوس المعاصر أن لا يتواني ويقوم بمهمته قبل فوت الوقت. والشاعر خاطب حبيبته كي يضيفي إلى النصالشعري صبغة عاطفية. والحقل الدلالي المتشكّل من تراكيب «الوطن المفتوح»، «الثورات»، «الوطن الغارق في البؤس»، «فقراء المدن المرضى» و«حثة الأموات» يكشف عن رؤية الشاعر بالنسبة لقضايا الوطن.

ومما تجدر إشارته هنا أن البياتي لجأ إلى أسطورة بروميتيوس للتعبير عن موقفه لأنه هناك علاقة وثيقة بين هذه الأسطورة وواقع الحياة المعاصرة، كما أن البشر في الأسطورة يعاني من قساوة نظام الآلهة، البشر المعاصر يعاني من الظلم والاضطهاد والفقر وعدم العدالة تحت نير الأجناب والحكومات الفاسدة. وكما أن في الأسطورة يقوم بروميتيوس بعمل تمرد في وجه الآلهة ويضحّي بنفسه من أجل الإنسان، يجب أن يظهر أحد في دور منجي ويقوم بإنقاذ الإنسان المعاصر، ويعيد له الحياة الكريمة وحرته المفقودة. «إن البياتي في سعيه نحو نيسابور الجديدة، من خلال توظيفه الشخصيات المختلفة يبحث دائماً عن بروميتيوس جديد، عن بطل يثور ليس من أجل ذاته فقط بل ومن أجل الآخرين. ويوجب على بروميتيوس أن يقوم بإجراء ما أن يتصرف ليقوم العدالة بين البشر، ولذا فإنه يسرق النار من الشمس»^١:

«مهّدت للشمس يدي، فاخضرت الأشجار/ أمسكت بالنهار/ وهو يُولّي هارباً في عربات النار/ توهج الرماد في أصابعي وطارت العنقاء»^٢.

وتعكس هذه الصورة إجراءً بروميتياً، فبروميتيوس يسرق النار من مركبة الشمس ويعطيها للإنسان، ومن ثمّ فلا شيء مستحيل عند الجنس البشري بعد أن أعطاه بروميتيوس أسرار الآلهة. لكن الذي

١- رزق، شعر عبدالوهاب البياتي في دراسة أسلوبيّة، ص ١٧٣.

٢- البياتي، ديوان عبدالوهاب البياتي، ج ٢: ص ١٧٩.

يسرق نار الآلهة ويعلم الإنسان فنّ الثورة يجب أن يعاقب، يقيد بالسلاسل مشدوداً إلى صخرة، حيث تنهش صدر العقبان^١:

«بكى أبو العلاء/ وهو يراني في ثياب الأسر/ ينهش صدري النسر/ منتظراً مع الملايين طلوع الفجر»^٢.
 من يعن النظر في هذه القصيدة يرّ عناصر الثورة والنهضة والحرية تكررت فيها وسيطرت روح الحيوية والرجاء والتفاؤل والتطلع إلى المستقبل على سياق النص. والبياتي شكّل المقطع الأخير على الحوار الداخلي أو المونولوج، وبروميثيوس الذي هنا رمز للأسرى يتحدث عن آلامه رافضاً الاستسلام والخنوع، بينما يحلم بالانتصار ويتطلّع إلى فجر الحرية ولعنته في نهاية الأمر تتبدل إلى النجاة والفلاح (وينتظر مع الملايين طلوع الفجر...) هذا وإنّ الشاعر استدعى شخصية «أبي العلاء المعري» لتخصيب نصه الشعري. وفي المقطع الآخر من القصيدة يصرّح بأنه ينتظر المنقذ والمخلص، والانتظار يدلّ على الرجاء، بينما يتّخذ «الطوفان» رمز الانقلاب والثورة، يقول: «أنتظر "المبشر الإنسان" / أنتظر الطوفان»^٣.

وظّف البياتي هذه الأسطورة في قصيدته «سارق النار» من ديوان «أباريق مهمشة»، متكلماً عنه بصيغة الغائب، ووظّفها حافزاً لتبني مفاهيم هذا «القديس» بل أنبل قديس في التقويم الفلسفي تبعاً لماركس وهي إشارة كفيلة بطبع شعر البياتي كلّ بلون تلك الإشارة^٤: «داروا مع الشمس فانهارت عزائمهم/ وعاد أولهم يعني على الثاني/ وسارق النار لم يبرح كعادته/ يسابق الريح من حان إلى حان/ ولم تزل لعنة الآباء تتبعه/ وتحجب الأرض عن مصباحه القاني/.../ عصر البطولات قد ولّى وها أنذا/ أعود من عالم الموتى بمخذلان/ وحدي احترقت! أنا وحدي وكم عبرت/ بيّ الشموس ولم تحفل بأحزاني/ إني غفرت لهم/ إني رثيت لهم/ إني تركت لهم/ يا رب أكفاني!»^٥.

ثم جاءت نبرة البياتي وجاءت قولته على لسان بروميثيوس المخذول والناكص: «فلتلعب الصدفة العمياء لعبتها/ فقد بصقت على قيدي وسجّاني/ وما عليّ إذا عادوا بخبيثتهم/ وعاد أولهم يعني على الثاني»^٦.

١- رزق، شعر عبدالوهاب البياتي في دراسة أسلوبية، ص ١٧٤.

٢- البياتي، ديوان عبدالوهاب البياتي، ج ٢: ص ١٧٩.

٣- المصدر نفسه، ص ١٨٣.

٤- الجزائري، تخصيب النص، ص ٢٠٥.

٥- البياتي، ديوان عبدالوهاب البياتي، ج ١: ص ١٤١.

٦- المصدر نفسه.

البياتي في هذه الأبيات يصور عدم ثقة بروميثيوس بالجنس البشري وتفردّه عنه، فإذا كان بروميثيوس الأسطورة يتنسّم دور الرّيادة والبطولة لما انطوى عليه من استعداد للتضحية في سبيل البشر، فإن بروميثيوس الشاعر يري نفسه مخذولاً آنذاك، ليس في مواجهة أقداره بل في إخفاقه في التعايش مع أبناء جنسه من البشر. فالبياتي يدمج الذاتي بالأسطوري ويفعل الرمز متحدّاً مع الطبيعة الكفاحية لنموذج المناضل، بخاصة وإن هذه القصيدة نشرت في ديوانه «أباريق مهمشة»، وهي نتاج صحب مطلع الخمسينيات وانتفاضة الشعب العراقي ١٩٥٢ — ١٩٥٣ ضد حكومة نورالدين محمود وإسقاطها وتالياً، حيث ظهرت في أفق جبهة الاتحاد الوطني التي جمعت الأحزاب الوطنية والقومية معاً في العمل المنظم الواحد لإسقاط النظام^١.

وما يهمنّا هنا هو أنّ البياتي قد قام في قصيدته هذه بتحوير كليّ في أصل القصة، ووظف الأسطورة توظيف «التخالف»؛ إذ إنّ بروميثيوس لم يعد يضحيّ بنفسه من أجل البشرية، بل قد سيطرت عليه روح القنوط والتشاؤم، ويبدو أنه نادم من أن جلب لنفسه لعنة الآلهة من أجل هذا الإنسان الجاحد الذي لا يقدر تضحية بروميثيوس ولا يهتمّ بالحرية والعزائم والبطولات ولا يهتدي بنار الهدى. بروميثيوس في هذه الأبيات يمتاز بشخصية متخاذلة، غير ملتزمة، لامبالية، إلى حدّ أن يتردّد بين الحانات ويفعل العيب ويعتمد على الصدفة والقدر بدلاً من أن يسعى جاهداً لرفعة البشر ونصرته على خلاف ما نقرأ في أصل الأسطورة.

«هذا البطل لا ينفع البشرية، بل يحثّ الخطى متسرعاً من حان إلى حان. فالقصيدة تدور حول محورين: الأول محور الوجدان الجماعي فوجد فيه انهيار العزائم في بدايات الجهود في سبيل الحرية أو الشمس، والثاني محور الوجدان الفردي وهو بطل بروميثيوس ولكنّه من نوع خاص من صياغة البياتي. فإنّ بروميثيوس البياتي في هذه القصيدة فرديّ يفكر بنفسه ولا يحاول إنقاذ البشرية وليس ذا وجدان يقظ؛ لأنه يحاول أن يلغي التضحية في سبيل الإنسان وهو خائب وفاقد العزم والقوى، ويعتمد على الصدفة العمياء والقدر»^٢. «وإذا كانت قمة التضحية بالنسبة إلى بروميثيوس اسخيلوس أن يسرق النار من الشمس أو عالم الآلهة، فإن البياتي يري أن طاقة الشمس موجودة أبداً، والمشكلة الانسانية تكمن

١- الجزائري، تخصيب النص، ص ٢٠٤.

٢- فوزي، عبدالوهاب البياتي حياته وشعره، ص ١٥٢.

في سوء استخدام البشر لهذه الطاقة وفي هذا التطاحن والصراع الذي بدد قوى الإنسانية ولهذا جاءت نبرة البياتي البائسة وجاءت قولته على لسان بروميثيوس الناكس والمخدول»^١.
على أية حال نحن أمام ثنائية الاستلهام من الشخصية الأسطورية كبروميثيوس؛ فإن الشاعر نظر إليه من منطلق سياسي-اجتماعي؛ فإذا كان كل محاولات لإصلاح أمور الشعب ما وصل إلى النتيجة المطلوبة؛ فالتضحية التي قدم بروميثيوس المعاصر (البياتي) للإنسان العربي تقابل الخيانة، وإذا كان كذلك، أخذ يتردد إزاء المضي في التضحية من أجل البشر، وقدم بروميثيوس في صورة انزياحية.
هذا وإن البياتي في قصيدته «سيرة ذاتية لسارق النار» يستلهم خدمة بروميثيوس للإنسان اعتقاداً بأن الشعراء هم ورثة بروميثيوس وباستطاعتهم أن يلعبوا دوراً إيجابياً للجنس البشري وأن يقوموا بمقامه في تقديم الخدمة للإنسان؛ فإذا كانت عقلية البياتي كذلك فهو يكره تمام الإكراه من الشعر الذي بعيد عن الإنسان غير مهتم بأموره:

... كان سارق النار مع الفصول يأتي/ حاملاً وصية الأزمنة الأهميار/ يأتي رائياً/ يهجم في سباق الخيل
البشر الفانين/ في توهج الأرض/ ... / بحث من حان إلى حان ومن المنفى إلى المنفى/ عن الوجه الذي
يحملة سارق نار الشعر/ من معابد الآلهة - الإنسان/ عن أميرة المنفى التي كنا وراء شعرها الأحمر/ ...
كانوا يمدحون الخدم - الملوك في الأقفاص/ ينمو القمل - الطحلب في أشعارهم/ كنا وراء شعرها نروض
الخيول في سهوب هذا الشرق»^٢.

الفقرة الشعرية السابقة تطالنا بأن وظيفة بروميثيوس تغيرت في العهد المعاصر؛ فعليه أن يسرق الشعر الحقيقي من الشعراء المزيّفين ويقدمه إلى الشاعر الحقيقي. يتوجب عليه أن ينقذ اللغة من الشعراء الذين يزخرفون الكلمة في عصر الثورات والانتفاضات، ويحملون ويسرقون ويمدحون ويزيفون الحقائق. على بروميثيوس هنا أن يكون واهب الخير من جديد؛ رسالته هي أن يحمل الحب والإنسانية والحرية والشعر للإنسان المعاصر في عصر فقدت الإنسانية معناها وقيمتها، وأصبح الشعر زخرفة لم تعد تتغنى بالحرية والحب والإنسانية في عصر الانتفاضات؛ «وشعراء الحلم المأجور في الأبراج كانوا بالمساحيق/ وبالدهان يخفون شحوب ربة الشعر التي تشيخ» كما حمل بروميثيوس الأسطورة «النار» للبشرية، ولكن نار بروميثيوس البياتي رمز للكل، وإها ذات دلالات موحية لا تعني الدفيء والنور فحسب، رسالته هداية

١ - الجزائري، تخصيص النص، ص ٢٠٦.

٢ - البياتي، ديوان عبد الوهاب البياتي، ج ٢: ص ٣٥٣ - ٣٥٧.

البشرية، بروميثيوس الشاعر قد يوجد في «مطار باريس» وقد يوجد في «قرارة الكأس» أو «المرأة»، وعلى طالب الحق أن يقتفي أثره أينما وجدته.

وقصيدة «الحمل الكاذب» من الأشعار التي استغلّ الشاعر فيها أسطورة بروميثيوس، حيث يرى يتناول موضوع «المنقذ» أو «المنجي» في هذه القصيدة، ويصوّر الانتظار الذي لم ينته إلى نتيجة ما، بينما يلقي الضوء على الظروف الحاكمة على العالم العربي بعد النكسة وربما يكون دافعه الرئيس من نظمها ظهور شخصية «جمال عبدالناصر» وأقول نجمه كزعيم عالم العرب. إنه يستهلّ القصيدة باسم «بابل» ويصوّر لعنة هذه المدينة لعنة لن تنتهي أبداً وحتى بروميثيوس منقذ البشر لم يستطع أن يقوم من قبره ويقضي على العقم^١. وفي المقطع الأول من القصيدة المذكورة، يوظف الشاعر أسطورة بروميثيوس توظيف «التخالف» مع الأصل الأسطوري ويتكلم عنه بصيغة الغائب. والدافع الذي استدعى من أجله هذه الأسطورة هو تحدي القضايا السياسية والاجتماعية السائدة على الوطن العربي بينما يسمعون صرخته الموجهة من صراعه في سبيل الوطن:

«بابل لم تبعث ولم يظهر على أسوارها المبرش الإنسان/ ولم يدمرها ولم يغسل خطايا أهلها الطوفان/ ولم يقم من قبره عبر الفرات سارق النيران/ فالعقم والصف الذي لا ينتهي والصمت والتراب والحزن والطاعون/ طعام هذي المدن المنفوخة البطون/ والبشر الفانون فيها ككلاب الصيد/ يحترقون تحت شمس الصيف/ ما بين مهزوم وبين راسف في القيد»^٢.

يمكن القول بأن «بابل» هنا رمز لمجد الأمة العربية الزائل، والشاعر يمزج بين التجربة المعاصرة التي يريد إبلاغها والتجربة التراثية بينما لا يشعر سوى القنوط والتشاؤم ولا يرى خلاصاً من هذه الأوضاع. ومما يلفت نظر القارئ هو معجم هذه القصيدة كمفردات «القبر»، «العقم»، «الحزن»، «الطاعون»، «مهزوم»، «البشر الفانون» وغيرها من الكلمات التي تحمل شحنات سلبية، وتناسب والغرض الشاعر وتشكل حقلاً دلاليّاً يعكس تلك الأوضاع المؤلمة. «فهذه المدينة العاقر المهلك قد شلّها العقم والصمت والحزن والطاعون وتستسلم بالمجان للصوص والخائن والجبان»^٣. هذا وإنّ البياتي يرفع في هذه القصيدة الأحداث الفاجعة التي شهدتها العالم العربي أثناء الحرب العربية الإسرائيلية في حزيران

١- ناظميان، بررسى تحليلي مفهوم منجى «نجات مجش» در شعر اخوان ثالث، البياتي و نزار قباني، لسان مبین،

ص ٢٥٠.

٢- البياتي، ديوان البياتي، ج ٢: ص ١٩٤.

٣- رزق، شعر عبدالوهاب البياتي في دراسة أسلوبية، ص ١٤٩.

١٩٦٧ إلى المستوى الأسطوري. «والثيمة المركزية هي عقم المدن العربية المعاصرة وفشل القيادات العربية في تحقيق خلاص الأمة العربية و يسم هذه الأحداث بعناصر أسطورية تردّد أصداء معاناة موت وبعث تموز الذي يلمح إليه بأنه «سارق النيران» في هذه القصيدة»^١. والملاحظة الأخرى هي أن الشاعر قام بالانزياح في أصل الأسطورة؛ إذ بروميثيوس هنا لايقوم بنجاة البشرية ويترك التضحية ولايحمل لهم نار الحياة ولا يعيد للإنسان العربي دوره في التاريخ، وللحضارة العربية حيويّتها وفعاليتها وهذا يزيد من مأساة البشرية ويعظمها.

٣. بروميثيوس في شعر بدر شاكر السيّاب

من الشعراء الذين تغلغلت الأسطورة في بنية نصوصه الشعريّة هو بدرشاكر السيّاب (١٩٢٦ - ١٩٦٤م)، حيث أصبحت الأسطورة جزءاً لايتجزأ من شعره ورؤيته للحياة. والتحقيق يبيّن لنا أنّ الأصول الأسطورية تعدّدت في شعر الشاعر وتنوّعت بين مؤثرات ثقافية لشعراء أروبيين، وبين مؤثرات ميثولوجية قديمة لكتب وأساليب أدبية حوت مضامينها دلالات اجتماعية وانسانية كثيرة^٢. ولاننسى أنّ السيّاب كان ينتمي إلى الحزب الشيوعي، وحياته واتجاهاته الأدبية كانت متصلة اتصالاً تاماً بالحزب الشيوعي، وتفوح من كثير من قصائده رائحة الاشتراكية، ففي رأيه أن على الأدب أن يدخل ميدان الصراع الاجتماعي، ويلتزم بالجماهير المسحوقة؛ الفلاحين والعمّال؛ ليكون سلاحاً يحاربون به من أجل حقوقهم، ويستعيدون به إيمانهم بإنسانيتهم^٣.

تأسيساً على هذا، «قد كان السيّاب في الجانب الأكبر من شعره ملتزماً فجاء شعره تعبيراً عن القضايا الحضارية والإنسانية منطلقاً من قضاياها الفردية الخاصة، فاتّحد بذلك في شعره الخاص والعام والحسيّ والمجرد فولد الرمز الذي يجسّد مكونات اللاوعي الإنساني العام وهي النماذج الأصلية التي اتخذت الأسطورة وسيلة للتعبير»^٤. وأسطورة بروميثيوس بما تحمل من معاني الفداء والمقاومة وتحمل العذاب من أجل إسعاد الآخرين، تلائم نزعة الشاعر الماركسية والالتزام الاشتراكي لديه. وعلى صعيد آخر فالشاعر «يعاني غربتين متعالمين: غربة الفكر، وغربة الجسد المريض، ثم يعاني الغربة الكبرى أي غربة

١- المصدر نفسه، ص ١٥٠.

٢- علي، دراسات في الشعر العربي المعاصر، ص ٦٩.

٣- ابوحاقة، الالتزام في الشعر العربي، ص ٦٢٠.

٤- عوض، أسطورة الموت والانبعاث في الشعر العربي الحديث، ص ٩٤.

الوطن»^١؛ فيلجأ إلى بروميثيوس، أسطورة المحنة والمعاناة والألم، للتعبير عن المعاناة الفردية والأزمات النفسية.

على ضوء هذه العقلية نراه في قصيدة «العودة لجيكور» يستحضر أسطورة بروميثيوس ويتكلم عنه بصيغة الغائب بينما «يعمد إلى مزج أسطورة بروميثيوس وقصة تضحيته في سبيل الآخرين، بقصة السيد المسيح حين ألبسوه تاجاً من الشوك سخرية به، قبل صلبه، حيث يصبح بروميثيوس هو المسيح في هذا العصر^٢:

من الذي يحمل عبء الصليب/ في ذلك الليل الطويل الرهيب؟/ من الذي يبكي ومن يستجيب للجائع العاري؟/ من يتزل المصلوب عن لوحه؟/ من يطرد العقبان عن جرحه؟/ من يرفع الظلماء عن صبحه؟/ ويدل الأشواك بالغار؟^٣

من الملاحظ أن ليس للأسطورة في هذا المقطع سوى إشارة خاطفة إلى لعنة بروميثيوس ولما بين الأسطورة بروميثيوس وقصة صلب السيد المسيح من الاشتراك والتشابه(العذاب،التفدية من أجل الآخرين، الصمود)، عمد الشاعر إلى المزج بينهما وأخذ يعلو صوت القوة والتمرد والروح البروميثية ويتمنى أن يكون هناك من يظهر كمنجٍ يقوم بعمل إنقاذ المسيح أو بروميثيوس المعاصر، وربما يقصد الشاعر الاشتراكي أن يربط بين الأسطورة وواقع القضايا البشرية ويستنجد هذا النموذج الأسطوري، بما تحمل من معاني الفداء من أجل البشرية؛ كي يبحث عن نموذج مثالي يقوم بحل أزمة الإنسان المعاصر ويقضي على مأساته. ومما يلفت الانتباه استفهامات متواترة جاءت بها الشاعر كي يعبر عن الحيرة والاستبعاد وعجز البشر المعاصر في الوصول إلى أهدافه.

يرى إحسان عباس^٤ بأن الشاعر في المقطع الأول لقصيدة «رؤيا في عام ١٩٥٦» يرتدي قناع بروميثيوس، ويتحد مع شخصيته والمراد من الصقر في هذه الأبيات، صقر بروميثيوس: «حطت الرؤيا على عيني صقراً من لبيب/ إنها تنقض، تحت السواد/ تقطع الأعصاب، تمتص القذى من كل جفن، فالغيب...»^٥. مضافاً إلى ذلك فخليل موسى يشاطر عباس في رأيه ويرى أن «في هذه الأبيات إشارة إلى صقر بروميثيوس، ثم يواصل القصيدة فيتخذ وجه بروميثيوس قناعاً من دون أن يشير إلى اسمه،

١- الجزائري، تخصيب النص، ص ١٨٠.

٢- علي، دراسات في الشعر العربي المعاصر، ص ١٣٧.

٣- السياب، ديوان بدر شاكر السياب، ج ١: ص ٤٢٣.

٤- عباس، بدر شاكر السياب دراسة في حياته وشعره، ص ٣٣٢.

٥- السياب، ديوان بدر شاكر السياب، ج ١: ص ٤٢٩.

ويعبر عن رؤاه وتجاربه تعبيراً موظفاً، ولاسيما أنه استطاع أن يوحد تجربته وتجربة بروميثيوس من خلال استخدامه ضمير المفرد المتكلم، ولكن الشاعر استدعى في أثناء مخاطبته الصقر الذي جاء ينهش كبد بروميثيوس عدة أسماء شبيهة في تجارها بتجربة بروميثيوس^١:

أيها الصقر الإلهي الغريب/ أيها المنقض من أولمب في صمت المساء/ رافعاً روحي لأطباق السماء/ رافعاً روحي - غنيميداجرماً/ صالباً عيني - تموزاً، مسيحاً،/ أيها الصقر الإلهي ترفق/ إن روحي تتمزق/ إنهما عادت هشيماً يوم أن أمسيت ربحاً^٢. فالفقرة الشعرية السابقة تؤكد على أن الشاعر هنا يصور بروميثيوس المقيّد في حين يقدم تضرّعه وشكواه كأنه البارّ المتألم، أو كأنه «أيوب»، إنه المعذب الشاكي^٣. والشاعر يعود إلى هذه الأسطورة في قصيدته «أمام باب الله» ويتخذ قناع بروميثيوس المقيّد الذي يقرّ هنا بتضرّعه أمام زيوس و ييوح عن شعوره بالعجز: «منطرحاً أمام بابك الكبير/ أصرخ، في الظلام، استجير/ يا راعي النمل في الرمال/ وسامع الحصاة في قرارة الغدير/ أصبح كالرعد في مغاور الجبال/ كآهة الهجير/ أسمع النداء؟ يا بوركّت تسمع/ وهل تجيب إن سمعت؟/ صائد الرجال/ وساحق النساء أنت، يا مفعج/ يا مهلك العباد بالرجوم و الزلازل/ يا موحش المنازل/ منطرحاً أمام بابك الكبير/ أحس بانكسارة الظنون في الضمير/ أتور؟ أغضب؟/ وهل يتور في حماك مذنب»^٤.

من الجلي أن السياب في هذا المقطع قام بتحويل الأسطورة؛ والتصوير الذي يقدم من شخصية بروميثيوس يختلف عن أصل الأسطورة وأنانية بروميثيوس وتمردّه أمام كبير الآلهة، حيث يرسم عجزه أمام جيروت زيوس وقدرتها الأزلية. بروميثيوس يبتّ هنا عن تضرّعه واستسلامه وخنوعه في جملات «منطرحاً أمام بابك الكبير»، «أصرخ في الظلام استجير»، «يا مهلك العباد بالرجوم و الزلازل»، «أحس بانكسارة الظنون في الضمير». والملاحظة الأخرى هي أن تكرار أسلوب النداء والاستفهام أيضاً يحكي عن عمق أزمة بروميثيوس وغربته الوجودية، وعجزه أمام نظام الآلهة. وفي الأبيات التالية من قصيدة «المعبد الغريق» أيضاً يصوّر ذلك الإحساس:

«هلمّ فما يزال زيوس يصيغ قمة الجبل/ بخمرته، يرسل ألف نسر نرّ من أحداقها الشرر/ لتخطف من يدير الخمر، يحمل أكؤس الصهباء والعسل»^٥.

١- الموسى، الحدائثة في حركة الشعر العربي المعاصر، ص ١١٠.

٢- السياب، ديوان بدر شاكر السياب، ج ١: ص ٤٢٩.

٣- الجزائري، تخصيص النص، ص ١٧٨.

٤- السياب، ديوان بدر شاكر السياب، ج ١: ص ١٣٥.

٥- المصدر نفسه، ج ١: ص ١٨٤.

فالقارئ لمجموعة شعرية «المعبد الغريق» التي كتبها السيّاب في مرحلة الارتداد إلى الذات، يجد أنّ صورة الموت أصبحت موضوعاً رئيسياً فيها، ومحوراً استندت إليه شبكة العلاقات الموضوعية القائمة. فهذه القصيدة التي تحمل نفس عنوان المجموعة الشعرية، كتبها الشاعر إثر سماعه خبر غرق معبد بوذي إثر انفجار بركاني ويروي الخبر بلسان شيخ يجلس في الحانة يشرب الخمر، يثّ عن اللاشعور الداخلي وخوفه من الموت والفناء وقلقه الوجودي إثر المرض الذي أصابه. ثمّ لا يمكن الإغماض عن تواتر ألفاظ «الموت» و«الدم» و«الريح» التي ترمز إلى الخراب والدمار والفناء.

على أية حال فالوقوف المتأني عند النماذج الشعرية السابقة يؤكّد على أن السيّاب وظّف الأسطورة لتجسيد العذاب وقلق الإنسان المعاصر ومعاناته وغربته الوجودية، باحثاً عن الذي يحدث التغيير الشامل، ولو نواجه في بعض النماذج بحبيّة أمل الشاعر واستسلامه. إذ أنّ شاعرٍ يتّجه في توظيفه لهذه الأسطورة اتجاهاً عاطفياً.

٤. بروميثيوس في شعر بلند الحيدري

بلند الحيدري من جيل شعراء المدرسة الرومنطيقية والقلق الوجودي، بدأ حياته الشعرية عضواً في جماعة «الوقت الضائع» الذين استمدوا اسم جماعتهم من قلقهم وهواجسهم الوجودية، ومن تأثرهم بالاتجاهات الحديثة في الأدب والفن^١. يتمثل شعره الرومنطيقية والتيار الوجودي كما يتمثل اليأس والحيرة والقلق، غير أنّه لجأ إلى بعض الأساطير للبوّح عن مشاعره هذه. وأسطورة «بروميثيوس» إحدى الأساطير الموظّفة في شعره، حيث قام باستدعاء هذه الشخصية وتوظيفها في قصيدته المعنونة بـ«بروميثيوس» حينما يتزع إلى التماهي والاندماج الكامل مع هذا الرمز الأسطوري ليتضاءل صوت الشاعر تاركاً الهيمنة لصوت الشخصية الأسطورية لتتمظهر بمشاهدة تفصح عن واقع الاغتراب الوجودي وتتمركز حول بؤرة مركزية متمثلة بعشيّة الإنسان ومأزقه في الكون إذ تتّجه مفاصل النصّ ومادته لتجسيد مأساوية المصير لهذه الشخصية.

فالنصّ يجيل إلى أسطورة بروميثيوس ويمكن اكتناه هذا الرمز من عنوان النصّ؛ إذ يوظّفه الشاعر بشكل يتّراح عن دلالته الأصلية ويحقق دلالة جديدة. ويبدو أن استحضار الشاعر لهذه الأسطورة جاء للتعبير عن رؤاه المعاصرة؛ فالحيدريّ يقوم بتغيير الدور البروميثي عبر تماهيه مع الرمز الأسطوري ليتحوّل هذا الرمز إلى نبض داخلي يحقق نمواً في النصّ وهكذا يؤكّد أن عملية التوظيف لم تكن بشكل جزئيّ إذ يحتشد النصّ بتفاصيل الحدث الأسطوري الذي ينبئ عن فلسفة البحث والرغبة الواعية، وهذا ما يبرّر

لجوء الشاعر المعاصر إلى الأسطورة كإدراك بعض مبهمات الوجود وإيجاد وسيلة لفهم تواجدهم الجدلي في الكون، لذلك نرى الشاعر قائلاً:

«وكالذري/ تلك التي لا ترى/ في صمتها القارس غير الرعود/ أعيش في موتي/ وأقنات من سري الذي كان فكان الوجود/ لا هاجس/ يبحث بي عن صدى/ ولا غدا/ يلجم لي بالخلود/ والليل إن مرّ ولم ينته/ لن يسألك الشك:/ ترى ... هل تعود ...؟/ تعود/ أو لا تعود/ فليس في مطرّحي ساعة/ يحصي بها الوقت خداع الوجود/ هذي يدي/ نفضت عنها غدي/ وألف وعد راسف في القيود/ فليحلم النسر بأمواته/ ولتحلم الموتى بسرّ الخلود»^٢.

فالحيدري استرشد أسطورة بروميثيوس للتعبير عن الغربة التي يعانيتها وشعوره القاتل بالعزلة وليس أدلّ على ذلك حينما شبه ذاته بالذري التي تعاني مرارة التوحّد والصمت والبرد لايشاطرها في معاناتها أحد، على الرغم من التضحيات الجمة التي قدمها للآخرين، لجأ إلى توظيفها؛ لأنها في تجربتها تجربته، فوجد في هذه الأسطورة حظاً وافراً في إثراء تجربته؛ لأن بروميثيوس فقد ظل يصارع العذاب وحده، فلم يعره الآخرون انتباهاً على الرغم مما قدم لهم^٣.

والشاعر يعود مرّة أخرى إلى الأسطورة هذه في قصيدته «وحدتي» و يتمّص شخصية بروميثيوس متّحداً معه، حيث يطلب من «الوحدة» أن تتركه لحاله؛ إذ كان ولا يزال له وظائف تجاه البشر وليس بمقدوره أن يغمض عن الانسان وإرشاده؛ فقد تعودّ على تحمل العذاب والصعوبة لاهتمامه بأمور الناس، ولا يلبق به أن يكون مرتاح البال متساهلاً؛ فإنه ليس للراحة والوحدة بل للناس وللنسر الذي كان ولا يزال ينهش صدره: «فاتركيني/ ستمت وجهك نفسي/ اتركيني/ صخباً أزحف في الطين وأمسي/ بعد حين/ لي مثل الناس صوتي/ لي مثل الناس حسيّ/ وطنوني/ لي مرمي/ وممر في دروب الشمس أعمى/ لي ضحكي/ وجنوني/ وبيتي/ صحوتي تغرق في السكر وتمتص/ سيني/ اتركيني/ أنا للناس/ وللنسر الذي ينهش صدري / أنا موتي»^٤.

ومما يستنبط من القصيدتين أن شخصية بروميثيوس في شعر الحيدري يتّصف بالنزعة النفسية والتيار الوجودي، وأن الشاعر يعيش قلقاً فكرياً ووجودياً، ويعمد إلى البوح عن شعوره بالوحدة والغربة

١- مهدي رضوي الموسوي، تجليات الحداثة في شعر بلند الحيدري (أطروحة دكتوراه). جامعة بصرة، ١٤٦-١٤٧.

٢- الحيدري، ديوان بلند الحيدري، ص ٣١٠.

٣- عبدالجواد، ظواهر أسلوبية في شعر بلند الحيدري (رسالة الماجستير)، ص ٨٠.

٤- الحيدري، ديوان بلند الحيدري، ص ٢٧٩-٢٨٠.

والأزمة النفسية من وراء هذه الأسطورة بما تحمل من معاني العذاب والغربة والمعاناة الوجودية. هذا من ناحية، ومن ناحية أنه حضر كبروميثيوس الفدائيّ الملتزم للجنس البشري، حيث يضحّي بنفسه للآخرين.

٥. بروميثيوس في شعر جبرا إبراهيم جبرا

جبرا ابراهيم جبرا (١٩٢٠ - ١٩٩٤ م) أديب فلسطيني متعدد المواهب، مختلف الأبعاد والجوانب، كاتب القصة والرواية والشعر والمقالة والبحث الأدبي واهتم بالنقد والترجمة عن اللغة الإنجليزية خاصة ترجمة آثار شكسبير. له آثار عديدة في النقد والترجمة والشعر والقصة والسيناريو^١. فقد وجد جبرا في موضوع الاستشهاد الفلسطيني مادة لتعميق المعاني التّموزية في شعره. ويلاحظ أن مجموعاته الشعرية قد حفلت بعدد غير قليل من القصائد ذات الصلة المباشرة بالتراجيديا الفلسطينية. أما فيما يتعلق باستخدام الأسطورة، فلا بدّ أن نلاحظ منذ البداية أن اهتمام جبرا بالأسطورة في الأدب سبق ظهور حركة شعر الحرّ وظهور من دُعوا بالشعراء التّموزيين. فشعر جبرا الإنكليزي (وهو شعر يعود إلى فترة الحرب العالمية الثانية وما بعدها بقليل) مليء بالاستخدامات الناضجة للأسطورة^٢.

يقول جبرا: «إن الأساطير بأشخصها وحركتها تجسّد نواحي نفسية عميقة الجذور في الإنسان وعظيمة الخطر في حياته. لقد غدت الأساطير مع الزمن رموزاً لتجربة الإنسان الأولى للحياة، هذه التجربة التي رسبت في أعماق اللاوعي الجماعي عند كل منّا. فإذا فهمنا الأساطير على هذا النحو، اتّضحت قيمتها في أدبنا الحديث. وأنا لا أعني بذلك مجرد كتابة هذه الأساطير ثانية أو مجرد الإشارة إلى أشخاصها للتركز عليهم، بل أعني تضمينها والاستمداد من معانيها واستخدامها كهيكل داخلية لأشكال جديدة»^٣.

والناظر في دواوين جبرا، يجد أن الأسطورة مبنوثة في قصائده سواء بالتلميح أو بالتصريح، وعلى مستويات تتراوح ما بين البساطة الشديدة والتعقيد الشديد. وتزوّدنا قصيدة «لعنة بروميثيوس» بمثال على الاستعمال الصريح للأسطورة من ديوان «المدار المعلق». ففي هذه القصيدة يستعير جبرا أفكاره الأساسية من مسرحية شلي «بروميثيوس طليقاً» ليقيم عليها تعبيره عن مشاعره نحو الثورة الجزائرية. وفيها يمثل بروميثيوس الشعب الجزائري، وزيوس الاستعمار الفرنسي، والصقر وسيلة من وسائل

١ - شمس آبادي، وجهان بين جبرا والقصة القصيرة، دراسات الأدب المعاصر، ص ٧٦ - ٧٧.

٢ - عصفور، نرجس و مرايا، ص ٢٠٨.

٣ - ابراهيم جبرا، الحرية والطوفان، ١٤٨.

العذاب والموت^١. وعلى حدّ تعبير باحث آخر: «بروميثيوس هنا هو الجزائر المسلوّبة وكبده تحيل على شعبه المضطهد وخيرات المسلوّبة والصقر هو جيوش فرنسا جرارة، والجنرال زفس (زيوس) هو فرنسا سلطة وشعباً ليتمّ تشكيل هذه اللغة ضمن أسلوب رؤيويّ تنحو فيه التجربة الحسية إلى التواري خلف الملفوظات»^٢.

فالقصيدية هذه كتبت سنة ١٩٦٠م أي بعد مرور سنوات عن اندلاع الثورة التحريرية الجزائرية سنة ١٩٥٤م، حيث استخدم فيها الشاعر لغة تكثيفية رمزية غامضة استشرفت صورتين: الأولى المظلمة مرتبطة بعدوّ ولايزال يعاني، والثانية المشرقة التي ارتبطت بوطن مسلوب، ناضل أهله من أجله بأرواحهم ودمائهم حتى النصر لتترسّخ كملحمة خالدة في سجلّ الحريّات^٣. فالشاعر في هذه القصيدة السياسية ألقى الضوء على معنى «المقاومة البروميثية» للتعبير عن مقاومة الشعب الجزائري، فيبدأ القصيدة على أجواء المونولوج وحديث نفس الصقر الذي يرمز إلى الجنديّ الفرنسي: «ما عدت أقوى، يا سيدي/ على التمييز من هذي الكبد./ ستّ سنين قد شبيّنتني - أم أنّها اللعنة التي ردها الجبل؟»^٤.

ينتقل الشاعر من بداية المقطع الأول ومروراً بباقي المقاطع إلى التعامل مع الكلمات تعاملًا حوارياً ووصفياً خالفاً مزيداً من الأنماط الدلالية وفق حالات الإحباط والتوتر، لينطلق محور المكان الرمزيّ باتجاه المزيد من التوضيح، وليصبح الكلام عن بروميثيوس وكبده هو كلام عن الأرض والوطن المسلوب الذي هو الجزائر. ليسمع الصقر في هذا المقطع إلى الصوت الواحد المتعدد في الانكسار، وليواجه ردة الفعل التي يسودها الهدوء المريض من أمره الجنرال زيوس، لتتقلب رهانات العلاقات بينهما في رهان الزمن الغائر بإكراهاته في حيرة اللحظات التي لا تولّد إلا حديث الموت الفردي بصيغة الحديث عن الموت الجماعي. ثم يروي: «رُفرف الصقر كسيراً/ بين يدي جنرال،/ مصدّع المنقار، مخلبُه/ كمخلب الجنرال مثقلٌ/ بذكرى الديدان والوباء»^٥.

١- أنظر: عصفور، نرجس و مرايا، ص ٢٠٩ - ٢١١.

٢- الوابي سامي، قراءة الشعر وانفتاح أفق الدلالة، قصيدة لعنة بروميثيوس لجزا إبراهيم جبرا نموذجاً، مجلة قراءات، ص ١٤٦.

٣- المصدر نفسه، ص ١٤٤.

٤- ابراهيم جبرا، المدار المعلق، ص ٦٣.

٥- المصدر نفسه.

نلاحظ بأن الصقر هنا يرمز إلى الجندي الفرنسي المرسل إلى مهمة من قبل قائد الاستعمار في الجيش الفرنسي، وقد عادَ مليئاً بالخيبة والفشل، حيث المدن، الحقول، المواطنون قلاع يصعب اختراقها. فيقول الشاعر معقّباً على لسان الجنرال زيوس الأمر: «وصاح جنرال زفس: «كم مرة جنتَ تنبؤني/ بالهزيمة. وأنت السيد في الذرى!/ عدّ وكُل من الكبد المتمرّدة/ ولا تأتني إلا مبشراً/ بمجدنا»^١.

هذا الانكسار لم يعد يحيا في ذاكرة الجنرال زيوس سوى كجمالية راكمت جمالياتها في صور التخريب، والتسلط، والقتل، والتأكيد، على أنه لم ييأس أو يملّ هذه الملفوظات الموزعة كسيمفونية قمع في جلّ مقاطع القصيدة^٢: أمطروا السفوح موتاً/ والمدافع تتضاغى في صداها الكهوف/... سننسفُ البيوت/ ونصدع الصخور، صخور التلاع/ الواقفات في مجاري الشمس/ نخرمها حتى الحشا». فيجيبه الصقر: «واللعنة يا سيدي؟! رأيتُ المدن على السواحل/ مليئةً بالشظايا/ وفي الجبل الشظايا/ وفي الحقول / مكان القمح قد زرعوها الحديد./ لمجدنا، يا سيدي،/ أمطروا السفوح موتاً/ والمدافع تتضاغى في صداها الكهوف».

ثم يتابع الحديث عن لسان القائد: «لمجدنا»، قال الجنرال: / ملوحاً برأته،/ «سننسفُ البيوت/ ونصدع الصخور، صخور التلاع/ الواقفات في مجاري الشمس/ نخرمها حتى الحشا». فيقول الصقر معقّباً ونبرة الاستسلام واضحة: «واللعنة يا سيدي؟! حرّمت العيون والقلوب/ في العواصم والقرى/ نهشت الأرض في الجنوب/ وفي الشمال./ لمجدنا، يا سيدي،/ ألف صقر مات/ وفي منقاره كبد بروميثيوس/ كالحجر، / وبروميثيوس لا يموت/.... واللعنة يا سيدي؟! أنتهش السهل والريبي/ أنتهش الزرع والضرع/ أنتهش رؤوس الفتية والفتيات/ في الشوارع والأزقة؟! وهم يتصايحون: / يا شفاهاً من غسل/ ما أطيب النوم على الأفاقي!/ ما أطيب النوم على الضفاف!/ القلبُ دوماً يدوي/ بالحديد وبالرصاص، لمجدنا؟!/ بروميثيوس، مئة وثلاثين عاماً،/ بين أسنان الشوك والحجر/ واقف تحت تحويم الصقور»^٣.

ما يستشف من هذا المقطع هو أنّ صقر الاستعمار قد يتس كلّ اليأس من تعذيب بروميثيوس الجزائري والتهام كبده، حيث لا يرى فائدة تحت هذه اللعنة؛ لأن نار الثورة لن تخمد أبداً وقوله «بروميثيوس لا يموت» خير دليل على ذلك. فالصقر هنا يعلم أنه لا بدّ من الخيبة لأن اللعنة لا يؤثر في بروميثيوس الجزائري؛ لأنه وإن نهش كبد بروميثيوس لا يقدر على أن ينهش الإرادة والأمل والتطلع إلى الغد وروح

١- المصدر نفسه، ص ٦٣-٦٤.

٢- الوابي سامي، قراءة الشعر وافتتاح أفق الدلالة، قصيدة لعنة بروميثيوس لجيرا إبراهيم جيرا نموذجاً، مجلة قراءات، ص ١٤٦.

٣- المصدر نفسه ٦٤-٦٦.

المقاومة في الشعب. ثم نجد في رد الجنرال ضعف القوى الاستعمارية لتحقيق أهدافها: فانتصب الجنرال، وصاح: «عُد! عُد إليه وكُل من كبده، أكباد رجاله ونسائه. / لقد سمعت اللعنة نفسها، ورأيت الذرى / تضحّ بها براكينها/ من أوراس إلى وهران، حتى الصحراء نفثت لعنتها/ عُد إلى ذراك وكُل من الكبد العاصية!»^١.

الملاحظ من هذا الخطاب الحواريّ أنه جعل خطاب النصّ مشحوناً بالعنف وبالشعور بالوحدة والندم، وصور خراب كبد بروميشيوس الجزائر وممتلئاً بمعاناة الضمائر المعدّبة وبأهوال الحرب وبمرارة وأعطاب الحروب وبسؤال الوجود والعدم حول الموت والحياة، وحول نزف الرغبة النافرة من روتينية الأشياء والعالم^٢. وفي آخر المقطع نجد نهاية التراجيديا: «وعاد الصقر لاهناً وقد رأى/ صفرة العقم في عيني جنراله. / حومّ فوق المدافع والبنادق، /فوق وديان الموت، عبر الصحاري، علا، / إلى الشواحق، إلى الذرى، / وعلاها إلى السحاب، إلى الشمس، وهناك مصوّباً من عين الشمس نفسه، صاح / صاح بروميشيوس، ثم هوى/ كنيك من السماء هوى/ مُهَشَّم المنقار والمخلب هوى/ منشور الجناحين على/ قديمي بروميشيوس/ ميتاً، قطعة أخرى من حجر»^٣.

على هذا النحو من التحليل تظهر لنا الدلالة الرمزية في السياق العام للقصيدة لتتجاوز رمز بروميشيوس الجسد إلى رمز بلد الجزائر، ولتتطابق الخاص فيها مع العام محوّلاً معه الموقف من الموقف الذاتي إلى الموقف الإنساني ولينكشف في آخر المطاف القناع الذي كان يغشي القصيدة في بدايتها، ولا ننسى هنا حبّ الشاعر المتوحد مع البلد الجريح الجزائر، فجاءت هذه القصيدة رثاءً حزيناً لها وبخاصة عند دمجها لثيمتي الوجود والعدم، والحياة والموت، والاستبعاد والحرية^٤.

ويجدد بنا أن نشير هنا إلى أن القصيدة تقوم على مبدأ الصراع والمقابلة بين الحياة والموت؛ فعناصر الحياة (بروميشيوس) تحتوي على الكبد، المدن، السواحل، الحقول، العيون، القلوب، العواصم، القرى، الأرض، النهود، العذارى، الأعناب، البياض، السهل، الربى، الزرع، الضرع، الفتية، الفتيات، الشوارع، الأزقة، شفاه من عسل، النوم على الأفاحي، الضفاف. بينما عناصر الموت (زيوس) تشمل

١- المصدر نفسه، ص ٤٤.

٢- الوافي سامي، قراءة الشعر وافتتاح أفق الدلالة، قصيدة لعنة بروميشيوس لجبرا إبراهيم جبرا نموذجاً، مجلة قراءات، ص ١٤٧.

٣- ابراهيم جبرا، المدار المعلق، ص ٦٦ — ٦٧.

٤- الوافي سامي، قراءة الشعر وافتتاح أفق الدلالة، قصيدة لعنة بروميشيوس لجبرا إبراهيم جبرا نموذجاً، مجلة قراءات، ص ١٤٩.

على الصقر، التميزيق، المخلب، المنقار، الديدان، الوباء، الشظايا، الحديد، الرصاص، المدافع، البنادق، البرائن، النّسف، الخرم، المقصلة، الكهربة، النهش، الشوك، الحجر، البراكين، صفرة العقم، الصحراء، ديدان الموت، الصحاري، التيزك.

هذا وأنّ صور الحياة تتكرّر وصور الموت تتكرّر، ذلك أن الصور تميل إلى الانتظام في أنماط كبرى فصلّ القول فيها في تشريح النقد. اللعنة عند حبرا تعبير عن الإيمان الحتمي بانكسار جويتر أو زيوس (أو زفس على تعبير حبرا)، وبانتنصار بروميشيوس. ومن الواضح أن أسطورة بروميشيوس اليونانية قد زوّدت حبرا بنبوية أقام عليها بنية قصيدة سياسية معاصرة طرفاه صراع بين قوتين إحداهما تطلب الحياة وتمثل الثانية الموت من وجهة نظر الشاعر^١.

من الملاحظ أن استخدام حبرا للأسطورة يختلف عن الشعراء الآخرين؛ إذ إن بروميشيوس ههنا لا يعاني المعاقبة بل يقوم في وجه ربّ الأرباب، إنّه لا يموت والصقر الأسطوري لن يقدر عليه. الشاعر في هذه القصيدة استفاد منصفة المقاومة البروميثية، وربط بين صمود هذا البطل وعدم استسلامه لكبير الآلهة الأولمبية وبين مقاومة الشعب الجزائري أمام الاستعمار الفرنسي لتصوير مثابرة الشعب وبذل جهودهم للمقاومة من جهة وتصوير خيبة أمل الاحتلال من جهة آخر وعلى هذا النسق تسير القصيدة، حيث بروميشيوس الجزائر يقاوم ولا يقنط ويبقى كالصخر تنكسر عليه مناقير الفولاذ والحديد، ومن البديهي ألا يقلّ التعبير هنا قوة وعنفاً عنه في القصائد الوطنية المباشرة، لكنه تعبير وُضع الآن في إطار أوسع من حيث الدلالة.

النتيجة:

انطلاقاً من النصوص الشعرية المدروسة يمكن الوصول إلى بعض النتائج:

١- إنّ أسطورة بروميشيوس تحوّلت من مجرد القصة إلى إحدى الهواجس الشعريّة الأساسيّة في حركة الشعر العربي المعاصر، حيث تمثّل إحدى الأساطير المحوريّة الموظّفة بشكل أو بآخر في الشعر وأصبحت الاستفادة من إمكانيّات هذا التراث الأسطوري جزءاً لا يتجزأ من مهمة الشاعر؛ فإنه لم يستخدمها مجرد نقل القصة ولم يكن ردّ فعله تجاه هذه مقتصرأ على وجهه التراثي، بل كان تحويلاً وخلقاً جديداً أسبغ عليها ما أراد الشاعر لها من دلالات جديدة وأعطاهها عادةً طابعاً رمزياً وبذلك أخرج القصيدة من غنائيتها وبما تمكّن من دمج الذاتي بالموضوعي للتعبير عن مواقفه المختلفة. ثمّ إنّه لم يوظّفها للهروب من الواقع المعيش بل كثيراً ما يطابق بين الأسطورة وتجربته المعاصرة.

٢- والشعراء العرب المعاصرون ولو استغلوا عند استدعائهم التقنيات المختلفة - كالتناص والانزياح والقناع والمونولوج والديالوج وغيرها- لإثراء عملهم الفني وتحصيب نصوصهم الشعرية، غير أن توظيفهم يختلف بقدر ما من شاعر إلى آخر؛ فأبو القاسم الشابي في توظيفه لها يسلط الضوء على جانب «التمرد البروميثي» ويستعظم المعاناة الإنسانية ويستنهض الجنس البشري نحو الحياة الفضلى؛ وإن قصيدته المدروسة تشهد على أنه صاحب التزعة البروميثية المفعمة بروح التمرد والتحدّي وصاحب الإيمان العميق بقوى الإنسان وجدارته. فالشابي - وإن ركّز على عنصر التمرد البروميثي - لكن شعره جاء عكس توقع أصحاب النقد الأسطوري غير رمزي؛ كيف لا وإنه صرّح باسم الأسطورة في العنوان ومقام بتحوير الشخصية في النصّ.

٣- هذا وإن بروميثوس البياتي شخصية ملتزمة إلى حدّ كثير؛ فالشاعر يستغل هذه الأسطورة لتحديّ الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية السائدة على الوطن العربي وللتعبير عن أفكاره الثورية وعمّا يعتلج في صدره من مخاض سياسي واجتماعي يشهده الوطن، غير أنه يجد في هذه الأسطورة دعماً يعبر به عن نزعاته الاشتراكية ومواقفه إزاء قضايا الجماهير ومركزه على جانب «التفدية البروميثية» وإسعاده الناس، وقد حاول أن يمزج الثورة الاجتماعية والسياسية التي يدعو إليها بالتمرد المتأفريقي. ويرى البياتي أنّ الشاعر هو الذي باستطاعته أن يلعب دور بروميثوس وله دور رياديّ في العالم الجديد، فهو الوارث الحقيقي للمفديّ بروميثوس، والنار التي يمكن تقديمها إلى البشر في عصرنا الراهن هي الشعر الحقيقي الذي يخدم الإنسان؛ فالذي لا يلتزم بسعادة الإنسان فهو الخائن الأكبر.

٤- وأما المحصلة النهائية من استقراء شعر السيّاب تدعونا بالاعتقاد إلى أنه قد ركّز على جانب «العذاب البروميثي» مازحاً بين بروميثوس والمسيح وأيوب كالشخصيات المعذبة، ثم أخذ يقوم في وجه الإله ويقدم شكواه وتضرّعه من جبروت نظام الآلهة. فالعذاب هو المحور الذي تتركّز عليه عدسة الشاعر في استلهامه لبروميثوس. ويمكننا أن نكشف بواسطة كيفية إحضار هذه الشخصية، حجم الهوة بين الواقع المعيش والواقع المأمول عند شاعرنا السيّاب.

٥- وما يستوقفنا عند قراءة شعر بلند الحيدري هو أنه لجأ على نحو ملحوظ إلى بروميثوس للتعبير عن التيّار الوجودي والمتأفريقي والأزمات النفسية دون النّظر إلى البعد الاجتماعي أو السياسي؛ فالشاعر ركّز بواسطة الأسطورة هذه على «الاغتراب الوجودي» وقدم نفسه كالذي يلوي على الأمور ويعاني الوحدة والصمت إزاء ما يجري في الوجود.

٦- وانطلاقاً من تقصّي نصوص جبرا إبراهيم جبرا الشعرية يمكننا القول بأنّه ربط بين الأسطورة وثورة

الشعب الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي فوجد في تمرد بروميثيوس خير تمثيل في تصوير مقاومة الشعب الجزائري وعدم استسلامهم؛ لذلك هذا التوظيف يمكن أن يفسر لنا التزام الشاعر تجاه الشعب المظلوم المقاوم؛ إذاً روح بروميثيوس حبراً أشد ما يكون تعطشاً إلى المقاومة والحريّة. ولا يفوتنا القول بأن الاستعمار الفرنسي معادل موضوعي للإله «زئوس».

وأخيراً يفرض على القارئ أن يأخذ هذه الإشارات بالاعتبار وألا يتجاهل ملامح بروميثيوس المنتشرة بأشكال متنوّعة في النصوص الشعريّة المعاصرة وإلا تبقى مفاهيم شعر الشعراء بين ملامح الإبهام وظلاله.

❖ قائمة المصادر والمراجع:

الكتب العربية:

١. ابوحاقة، أحمد. الالتزام في الشعر العربي. (ط ١)، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٩.
٢. البياتي، عبد الوهاب. ديوان عبد الوهاب البياتي. (ط ٤)، بيروت: دار العودة، ١٩٩٠ م.
٣. حبراً إبراهيم، حبراً. المدار المغلق. (ط ١)، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨١ م.
٤. ———، ———. الحرية والطوفان. (ط ١)، بيروت: دار مجلة شعر. د. ت.
٥. الجزائري، محمد. تخصيص النص. (ط ١)، الأردن: مطابع الدستور التجارية. ٢٠٠٠ م.
٦. الحيدري، بلند. ديوان بلند الحيدري. (ط ٢)، بيروت: دار العودة، ١٩٨٠ م.
٧. داود، أنس. الأسطورة في الشعر العربي الحديث. (ط ١)، المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع. د. ت.
٨. رزق، خليل. شعر عبد الوهاب البياتي في دراسة أسلوبيّة. (ط ١)، بيروت: مؤسسة الأشرف، ١٩٩٥ م.
٩. السياب، بدر شاكر. ديوان بدر شاكر السياب. (ط ٣)، بيروت: دار العودة، ١٩٨٩ م.
١٠. الشابي، أبو القاسم. ديوان أبي القاسم الشابي. (ط ١)، بيروت: دار العودة، ١٩٨٨ م.
١١. طنوس، جان. أبو القاسم الشابي: ملامح الموت والحياة في شخصية الشابي وشعره. (ط ١)، منشورات دار علاء الدين. د. ت.
١٢. عباس، إحسان. بدر شاكر السياب دراسة في حياته وشعره. (ط ١)، بيروت: دار الثقافة، ١٩٨٣ م.
١٣. عصفور، محمد. نرجس ومرايا (دراسة لكتابات حبراً إبراهيم حبراً الإبداعية). (ط ١)، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٩ م.
١٤. علي، عبد الرضا. دراسات في الشعر العربي المعاصر. (ط ١)، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر. د. ت.
١٥. عوض، ريتا. أسطورة الموت والانبعاث في الشعر العربي الحديث. (ط ١)، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٤ م.

١٦. —، —. ابوالقاسم الشابي. (ط١)، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر. د.ت.
١٧. فوزي، ناهدة. عبد الوهاب البياتي حياته وشعره. (ط١)، تهران: نثارالله، ١٣٨٢.
١٨. الموسى، خليل. الحدائثة في حركة الشعر العربي المعاصر. (ط١)، دمشق: مطبعة الجمهورية، ١٩٩١ م.
١٩. الورقي، سعيد. لغة الشعر العربي الحديث. (ط١)، بيروت، دار النهضة العربية: ١٩٨٤ م.

الكتب الفارسية

٢٠. اسميت، ژوئل. فرهنگ اساطير يونان و روم. (ج١)، برگردان شهلا برادران و خسرو شاهي. تهران: روزبهان، ١٣٨٣.
٢١. كندی. مايك ديكسون. دانشنامه اساطير يونان و روم. (ج١)، برگردان رقيه بهزادي. تهران: طهوري، ١٣٨٥.
٢٢. گرانت، مايكل و هيزل، جان. فرهنگ اساطير كلاسيك. (ج١)، ترجمه رضا رضايي. تهران: ١٣٨٤، ماهي.
٢٣. گريمال. پير. فرهنگ اساطير يونان و روم. برگردان احمد بممنش. تهران: دانشگاه تهران، بی تا.

المجلات:

٢٤. الحلبي، أحمد طعمة. التناص مع التراث الشعبي في شعر البياتي. المعرفة، العدد ٥٢٣. ١٤٢٨.
٢٥. السحرتي، مصطفى عبداللطيف. ابوالقاسم الشابي الرجل والشاعر. المجلة. العدد ٣٠. ١٣٧٨.
٢٦. شمس آبادي، حسين. جهان بين، محمد. جبرا والقصة القصيرة. دراسات الأدب المعاصر. العدد ٨. ١٣٨٩.
٢٧. الصيفي، عزيزة عبدالفتاح. التجديد الشعري في قصيدة الجبار لأبي قاسم الشابي: قراءة بلاغية ونقدية. العقيق. العدد ٤٥ و ٤٦، ١٤٢٣.
٢٨. المسلمي، عبدالله حسن. دراسة في مسرحية بروميثيوس في الأغلال لأيسخيلوس أو مشكلة العدالة. حوليات كلية الآداب جامعة عين الشمس. المجلد ١٤٠، ١٩٧٤ م.
٢٩. ناظميان، رضا. بررسي تحليلي مفهوم منجي «نجات بخش» در شعر اخوان ثالث، البياتي و نزار قباني، لسان مبین، شماره ٢. اسفند ٨٩.
٣٠. الوافي سامي، أ. قراءة الشعر وافتتاح أفق الدلالة، قصيدة لعنة بروميثيوس لجبرا إبراهيم جبرا نموذجاً. جامعة بسكرة، مجلة قراءات. عدد ٢٠١١. د. ت.
٣١. الورقي، سعيد، الأسطورة وأثرها في الشعر العربي الحديث. الكاتب. العدد ٢٠٠. ١٩٧٧ م.

الرسائل الجامعية

٣٢. عبدالجواد، إبراهيم. إعداد هشام حمد الكساسبة. ظواهر أسلوبيية في شعر بلند الحيدري. رسالة الماجستير. جامعة مؤتة، ٢٠٠٦ م.
٣٣. مهدي رضوي الموسوي، سلام. تجليات الحدائثة في شعر بلند الحيدري (أطروحة دكتوراه). جامعة بصرة.

گونه‌های حضور اسطوره پرومته در شعر معاصر عربی

دکتر علی نجفی ایوکی*، دکتر سید رضا میراحمدی**، بهاره صمدی***

چکیده:

راست آن است که اسطوره نقشی اساسی در شعر معاصر عربی بازی می‌کند تا جایی که بیشتر آن شاعران به منظور پربار کردن متون شعری و نیز به منظور پیوند موضوعات شخصی با موضوعات غیر شخصی و در راستای دور نمودن سروده از جنبه غنایی و دوچندان نمودن زیرساخت متن و چندپهلویی کردن آن به اسطوره روی آوردند. در این میان اسطوره یونانی پرومته با تمامی دلالت‌ها و بار معنایی که با خود دارد توجه ویژه شاعران معاصر عربی را به خود جلب کرده است؛ در پی آن، با تمرکز بر جنبه‌های مختلف اسطوره یادشده، به فراخوانی و کاربست آن در متون شعری پرداخته تا ضمن پربار نمودن سروده‌ها، هنرمندانه از داشته‌های درون و از رنج و عذابشان سخن برانند. در پرتو این مسأله، پژوهش حاضر تلاش دارد به بررسی، نقد و تحلیل اسطوره مورد نظر در شعر پنج تن از شاعران مشهور عربی یعنی ابوالقاسم شابی، عبدالوهاب بیاتی، بدرشاگر سیاب، بلند حیدری و جبرا ابراهیم جبرا بپردازد.

برداشت این است که اسطوره پرومته در همه شعر آن شاعران - به رغم تفاوت در گرایش‌های شعری- تابع وضع ناهمگون و ناهمساز سیاسی و اجتماعی است تا از این رهگذر بتوانند نیستی و بربادرفتگی تمدن را برجسته نمایند. با اینهمه رویکردشان نسبت به این اسطوره بین امید و ناامیدی و همسویی و ناهمسویی در نوسان است.

واژگان کلیدی: اسطوره، پرومته، آتش، رنج، سرکشی، پایداری.

* دانشیار گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه کاشان (نویسنده مسؤول). najafi.ivaki@yahoo.com

** استادیار گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه سمنان. rmirahmadi@semnan.ac.ir

*** - دانشجوی دکتری گروه زبان و ادبیات عربی، دانشگاه کاشان.

تاریخ ارسال: ۱۳۹۴/۰۸/۲۴ ه.ش = ۲۰۱۵/۱۱/۱۵ م. تاریخ پذیرش: ۱۳۹۵/۰۴/۰۶ ه.ش = ۲۰۱۶/۰۶/۲۶ م.

Prometheus myth in contemporary Arabic poetry

*Dr. Ali Najafi Ivaki, **

*Dr. Sayyed Reza Mir Ahmadi, ***

*Bahare Samadi, ****

Abstract

No doubt myths have played an essential role in contemporary Arabic poetry and Arab poets have frequently used different myths for the purpose of enriching and enhancing their poems, as well as preventing them from being purely lyrical. From among Greek myths, the myth of Prometheus has different significant implications and therefore has attracted the attention of Arab poets in such a way that they have used different aspects of this rich source to express their internal feelings, conflicts and crises in life. The purpose of this research is to study Prometheus myth in Arabic contemporary poetry and the way it has been applied in the poetry of five contemporary poets, namely Aboul-Qasem Echebbi, Abd al-Wahhab Al-Bayati, Badr Shakir al-Sayyab, Boland-al-Heidarai and Jabra Ibrahim Jabra. All these poets were attracted to this resource because they wanted to emphasize the instability of civilizations and show the political and social upheaval of different periods in spite of their differences. Their outlook vary from hope to hopelessness and from convergence to divergence.

Keywords: myths, Prometheus, fire, curse, agony, human, rebellion.

* - Associate Professor in Arabic Language and Literature, Kashan University, Iran.

** -Assistant Professor in Arabic Language and Literature, Semnan University, Iran.

*** Ph.D. Student, in Arabic Language and Literature, Kashan University, Iran.